فصلان من رواية

رأس بيروت

ياسين رفاعية

الفصل التاسع: قابيل وهابيل

«من لم يمت بالحرب، مات بغيرها». هكذا همس الدكتور أسعد لدى سماعنا الخبر الفاجع الآخر. وكان خبراً فاجعاً حقاً. فالسيدة أم علي، مثل بقية الأمّهات جميعاً، ظلت تخاف على ولديها الصغيرين، وتحرص على عدم إيذائهما، ككل أم مثالية، وفي هذه الحرب، كانت، ما إن تسمع طلقة رصاص حتى تهبط إلى ملجأ البناية مع ولديها ولا تغادره، إلى أن تتأكد أن القصف توقّف، وأن القتال انحسر. وجميع سكان الحي يتعاطفون مع زوجها أبو علي ويحبونه، ويحبون أسرته. وأم إبراهيم تقول عنه إنه القصّاب الوحيد الذي لا يغشّ باللحوم التي يبيعها، ومع أن رأي الدكتور مغاير لهذا الرأي فقد كان يعقّب دائماً: على الأقل، أبو علي رجل نظيف تشتهي اللحم من بين يديه. وفعلاً يعنى الرجل بدكانه كثيراً. يرتدي معطفاً رقيقاً أبيض كأنه ممرض في مستشفى، ويلبس في كفيه قفّازاً طبّياً، عدا عن عنايته الكاملة بنفسه. إنه شابّ لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره، تزوّج في بدايات الحرب. وأنجبت له زوجته طفلين على التوالي ما إن ينتهي من العمل حتى يتفرغ لهما في المداعبات، وشراء أنواع من الشوكولا من الجمعية التعاونية المواجهة لدكانه، كما أن بيته يقع في الطابق الثاني من بناية بابل المجاورة لبنايتنا، فوق محلّه تماماً، بحيث يستطيع محاورة زوجته وولديه على بعد بضعة أمتار من محله. وغالباً ما يكون الوالدان جالسين على حافة النافذة وأمّهما إلى جانبهما، فإذا فرغ أبو علي من عمله قليلاً تقدّم بضع خطوات إلى منتصف الطريق وراح يداعبهما بألفاظه الجميلة، ويضاحكهما بحركات من وجهه. أما عندما يكون القصف المتبادل على أشدّه فإن هذا المشهد يختفي تماماً. إذ يسرع الجميع إلى الملجأ بمن فيهم أبو علي وزوجته وولداه وبقية سكان البناية طبعاً.

صار أبو علي فيما بعد أشدّ حرصاً على الهرب من محله، بعد أن سقطت قذيفة ذات يوم أمام المحل تماماً فدمرّت كل ما فيه من براد وأوائل القصاب المختلفة وموجودات المحل. لم يكن أبو علي في محله آنذاك، إذ كان مختبئاً مثل بقية الناس في الملجأ. واستطاع أبو علي بعد ذلك إعادة تأثيث المحل بكل متطلبات عمله. لكنه، زيادة في الحذر، وضع بضعة أكياس من الرمل أمام واجهة المحل تحميه من قذائف مباشرة، وترك أموره بعد ذلك إلى الله.

وسكان الحيّ بطبيعتهم المتعاونة ازداد تعاملهم مع أبو علي، رغم أن اللحم في الجمعية التعاونية كان أرخص قليلاً. لكنهم يرون في الرجل أحد سكان الحي وتجب مساعدته وشراء اللحم من دكانه، خصوصاً بعد حادث القذيفة.

أبو علي بالذات، كذلك الدكتور أسعد، كانا يردّدان على الجميع ضرورة شراء اللحم من دكان أبو علي: «الفرق كله يا إخوان بضعة قروش، وأبو علي ابن الحارة، خسارته كانت كبيرة بسبب تلك القذيفة اللعينة، وعلينا أن نعوضه من حيث لا يشعر بشراء حاجتنا من بضاعته». ولم يكن أحد يعترض على هذا الكلام. أبو علي محبوب ومقرّب من الجميع. وكان يستعين بولد في الثانية عشرة من عمره يحمل اللحوم إلى طالبيها في منازلهم. لكن الولد ترك العمل بعد حادث القذيفة، فقد خشي عليه أهله من قذيفة أخرى، فصار أبو علي يضطر احياناً إلى حمل اللحوم بنفسه، خصوصاً إلى عائلات رجالها غير موجودين، إما على سفر، أو لانشغالهم في أعمالهم.

إلا أن ذلك الحادث الفاجع قلب الصورة رأساً على عقب، وزاد من مآسي الحي.

أحد طفلي أبو علي دفع أخاه، وهو يمازحه، عبر النافذة، فسقط إلى الشارع. كان أول من رأى المشهد أبو علي نفسه، فصرخ صرخة مدوية نبهت كلّ من في الحي: يا ولدي.. يا ولدي.. وأسرع ينتشل الطفل المضرّج بدمائه من فوق الأرض، حمله بين ذراعيه وراح يعدو به نحو المستشفى، فيما ركض خلفه أبو زهير وأبو زياد، وكانت الأمّ تولول عبر النافذة وتصرخ: يا ولدي.. يا ولدي.

صاح أبو إبراهيم: عليكم بالسيارة.. عليكم بالسيارة.

لكن الدكتور هدّأ من روعه قائلاً: السيارة يا أبو إبراهيم ليس لها قيمة، أين تستطيع السيارة أن تسرع في هذه الزحمة.. حتى سيارة الإسعاف من الصعب استدعاؤها.. أبو علي عقله برأسه.. إنه يعرف إذا ركض به ركضاً إلى المستشفى يصل قبل الجميع.

ظل الحيّ ساعاتٍ واجماً، كأن على رؤوس الجميع الطير.. النساء في الشرفات تستطلع الطريق. الرجال متجمعون أمام بناية بابل، وأمام بنايتنا بين أصص مزروعات أبو إبراهيم، قلوبنا مع أبو علي، ونرجو الله أن ينجو الولد.

عاد أبو زياد واجماً حزيناً، وما إن اقترب من جمعنا حتى قال: العوض بسلامتكم.. الولد مات.

وانتقل الخبر بسرعة البرق من الطابق الأول إلى الثاني فالثالث، فالحيّ كله، ورحنا نسمع بكاء النساء، بينما أخذ أبو إبراهيم يضرب كفاً بكفّ وهو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

عاد أبو علي متكّئاً على كتف أبو زهير شبه منهار، يبكي بحرقة.. وعرفت زوجته بالخبر قبل أن يصل. وما إن رأته من النافذة يتقدّم نحو البناية حتى راحت تبكي وتولول: يا ويلي يا حبيبي.. يا ويلي يا أبو علي.

انشغل الحيّ بأكمله بالحادث. وفي تلك الليلة، على كأس من الشاي، وبين أصص أبو إبراهيم وحديقته الصغيرة، قال أسعد:

ـ يا ليت سقط الولد الآخر معه.

استغرب أبو إبراهيم هذا الكلام وقال:

ـ لا.. لا يا أسعد.. قل الحمد لله الذي ظل الطفل الآخر حياً.

قال أسعد:

ـ انتم لا تعرفون المعاناة التي سوف يعانيها الطفل الأصغر عندما يكبر ويعرف أنه قتل أخاه.

أدركنا فعلاً ما كان يقصد إليه أسعد. إن مأساة دائمة سيعيشها الولد. هذا الحادث سيتدخل بحياته عند كل لحظة فرح، سيرى بعيني أبويه حجم المأساة.. وستكون حياته عبئاً ثقيلاً.

قال منير:

ـ لا أظن أن الأمور ستكون على هذا الشكل يا اخوان، الزمن كفيل، والنسيان نعمة من الله، لن يكون هذا الحادث في المستقبل إلا حكاية تروى يتخللها الأسف على كل حال.

قال أسعد:

ـ نرجو من الله أن تكون كذلك.. أنا قرأت حوادث مشابهة في الصحف وفي الكتب أيضاً، شكلت عبئاً ثقيلاً للأهل وللأخ، ليست هذه حادثة فريدة من نوعها.. إن حوادث كثيرة من هذا النوع تحدث هنا وهناك.. أعرف شاباً كان من طلابي في الجامعة، كان يقود سيارته بسرعة جنونية وإلى جانبه أخته، وتدهورت السيارة فجأة تفادياً للصدام بشاحنة كبيرة، والغريب في الأمر أن الفتاة قتلت على الفور، بينما لم يصب الأخ إلا بجروح بسيطة خرج على أثرها من المستشفى بعد يومين، لكن الندب في القلب كان كبيراً. كل الجامعة كانت تعرف مشكلته، يكون أحياناً في ذروة نشاطه وتودّده إلى رفاقه، ثم فجأة يتذكر، فينخرط بالبكاء، وكما كان يقول رفاقه إنه غالباً ما يراها قادمة من هذه الزاوية أو تلك.. يراها تجالسه في المقهى أو مطعم الجامعة، إذ كانت زميلته في الجامعة باختصاص مختلف، فيتذكر ويعتبر نفسه مجرماً وقاتلاً.. لم يكن هذا الشعور الذي يغالبه في الجامعة فقط، بل في الطريق، وفي كل مكان. وأكثر من هذا في البيت حيث عاشا ونشآ معاً. كان يرى في عيني والديه المحاكمة اليومية: أيها القاتل.. أيها القاتل. فوالده كان يحذره باستمرار من السرعة الزائدة في السيارة. وفي اليوم الذي اصطحب فيه أخته معه إلى سهرة عيد ميلاد أحد زملائهما حذره والده، وحذرته أمه، بل إنهما ذلك اليوم رغبا حقاً بعدم اصطحابه أخته معه، كأن ما حدث كانا يشعران به سلفاً، وحتى باب البيت وهو يغادر كان الأبوان معاً يحذرانه.. وكررت الأم على مسمعه: احذر يا بني السرعة أرجوك. انتبه. في الليل عادة تكثر حوادث السيارات.

يقول رفاقه إن الإثم الذي عاناه الشاب فيما بعد كان بسبب هذه التحذيرات التي جاءت على لسان والديه قبل الحادث المشؤوم. لقد حاول الانتحار يوماً ليتخلص من هذا العبء.. كان يراها في أحلامه، ويراها بقامتها الجميلة وبصوتها الحنون على طاولة الطعام فيعاف الطعام ويركض صوب غرفته ويبكي، حتى في الجامعة، كان يعاني من عقاب آخر. عقاب زميل لهما كان على وشك أن يخطبها لنفسه. كانا عاشقين، وكانا عندما يتمشيان في حديقة الجامعة تسعد بهما كل العيون. ومنذ مقتلها كره هذا الزميل شقيقها وقاطعه، وإذا التقيا مصادفة في الكلية أو النادي أو المطعم رمقه بقسوة كأنه هو نفسه يصيح به: أيها القاتل.. أيها القاتل!

هكذا تحوّلت حياة هذا الشاب إلى ألم ممض، عذاب لا نهاية له، حزن واتهام شمل الأسرة كلها، وتحول الجميع إلى ناس عصبيين ينفرون من أقل حركة، حتى الناس الذين يعرفونهم، الجيران والأقرباء، صاروا يتحاشون اللقاء بهم، بسبب هذا الهم الذي انتشر من الأفئدة والعيون.

الأبوان بما يملكان من حنان وحب، حاول كل منهما ـ على حدة ـ أن يخفف من وقع الصدمة على الابن، صار كل منهما يقول له ـ بين

الحين والآخر ـ هذا هو قدرها يا بني.. والبركة فيك الآن.. فكفّ عن هذا الحزن.. إنك تقتل نفسك وتقتلنا معك.

تدخلت في الحديث لافتاً نظر الدكتور:

ـ هذا الشاب يا أسعد واجه هذا الحادث الرهيب وهو واع وشاب ويقود سيارة.. والأحزان التي عاناها بسبب وعي ما فعل. أما بالنسبة لولدي أبو علي فهما طفلان صغيران.. ومع تقدّم الزمن سينسى الأب مثلما ستنسى الأم وسينسى الطفل نفسه ما اقترفته يداه، ويصبح الطفل القتيل مجرد ذكرى منسية. إذا تذكرها أبو علي أو زوجته فهي بقية أحزان وبقية شجون.

قال أبو إبراهيم:

ـ والحي أفضل من الميت يا أسعد.. الحمد لله أن أحدهما ظل حياً ولم يجرّه أخوه معه فتكون المصيبة أكبر والحزن أشدّ قد يؤدي بالأبوين إلى الجنون. الحمد لله يا أسعد.. الحمد لله. إنه القدر، ولا ندري ما هو السرّ، السرّ الذي لا يعرفه إلا الخالق عزّ وجل، إن كل ما نراه لا يحدث إلا بإرادته. ولكن لا نعرف ما هو هذا السرّ. الكون كله مبني على سر كبير لا يعرفه إلا ربك ذو الجلال والإكرام. الموت. الحياة. الأولاد. البشرية كلها.. هذه الحرب.. كل شيء مكتوب على اللوح يا أسعد.. ألم تقرأ سورة الكهف في القرآن. قصة موسى وسيدنا الخضر؟

قال أسعد:

ـ أنا قرأت القرآن كله يا أبو إبراهيم.

قال أبو إبراهيم:

ـ حسناً، دعني أروها لك. فالذكرى تنفع المؤمنين.

ثم إن أبو إبراهيم استقام في جلسته، وبسمل وبارك ومسح وجهه براحتيه، فيما اقتربنا جميعاً منه، فقال:

ـ اسمعوا يا إخوان، سورة الكهف فيها قصص رائعة تدلّ على ذلك السر الذي لا يدركه إلا القلائل أمثال الأنبياء والأولياء الصالحين. وحكاية موسى مع سيدنا الخضر الخالد أبداً كأصلح الصالحين يجب ألا تغرب عن بالكم، بل يجب أن تردّدوها دون ملل، فيها حكمة الله في خلقه، فيها المثل الأمثل لمقتل هذا الطفل البريء الآن.. ولا ندري ماذا سيكون في المستقبل؟

ثم إن أبو إبراهيم أغمض عينيه. ووضع راحتيه على ركبتيه وسمعنا صوته يرتل كشيخ في المسجد:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«(...) فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنّا علماً. قال له موسى هل أتّبعك على أن تُعَلّمنِ مما عُلّمت رشداً. قال إنك لن تستطيع معي صبراً. وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً. قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً. قال فإن اتّبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً. فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً. قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً. قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً. فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً. قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً. قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدنّي عذراً. فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ فأقامه، قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً. قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً. أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً. وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً. فأردنا أن يبدلهما ربّهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً. وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدّهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري. ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ـ صدق الله العظيم».

ويصمت أبو إبراهيم. أما أسعد فيغرق في تأمّل شديد، لعلّني الوحيد الذي كان يعرف ماذا يدور بخلده. أسعد عقلاني جداً، كل شيء يفسّره تفسيرات حسابية، عقلانية. وهو بعد لحظات همس في أذني: لو كانت أمّ علي منتبهة إلى الأولاد.. لما سقط الولد. وهذه الحرب ليست من صنع الله. فهل قتل الأبرياء من صنع الله؟ كيف أقبل هذا المنطق؟ كيف أقبل أن أرى بيتاً يهدم فوق رؤوس أطفال وأقول إن هذا من صنع الله؟ أعرف، بكل ما أملك من عقل وفكر، وبكل ما أعرف من لغات العالم أن الله رحمة، وأن الله عادل، وأن الله ليس بحاجة إلى كل هؤلاء البشر. إن عقلي يقبل كل هذا الخلق العظيم، الشمس والقمر والنجوم. النظام الشمسي بأسره. كل هذا الخلق العظيم من صنع الله الذي يخلق كل يوم معجزات في أثر معجزات. ولكن لا أستطيع أبداً أن أقول إن هذه الحرب القذرة من صنع الله. إنها حرب الشيطان لأنها حرب لا عدالة فيها، وحرب لا إنسانية، واستمرارها استمرار للعبة الشيطان، أبو إبراهيم متأثر كثيراً بأشياء تغرب عن بالي أنا. لا أفهم أبداً أن كل هذا الشر في هذه الدنيا هو من صنع الرب. صدقني يا أبو بسام إن إيماني أوسع مدى وأكبر فهماً من إيمان كل هؤلاء الناس. معرفتي بالحرب معرفة عقل. وأنا واثق أنني على حقّ، يخيّل لي أحياناً وأنا أرى هذا الدمار، وهذه الدماء، وهذا البطش الذي لا يمكن لوحوش الغابات أن تفعله فأتساءل: هل الله هو الذي يريد ذلك؟ بل أشعر بكثير من الخزي والخجل أن الله قد تخلّى عنا.. تخلى عن هذا البلد لأننا أذنبنا بحقّه وبأنفسنا قبل أن يذنب بحقّنا أحد آخر. لو أتيح لي أن أناقش أبو إبراهيم دون أن يتّهمني بالكفر والزندقة لقلت له باختصار: إن الله قد تخلّى عنا.. ولكنه سيظّل يردّد: لا تكفر يا ولد إن الله لا يتخلّى عن أحد.. أين هو السر الذي يتحدّث عنه أبو إبراهيم؟ السرّ يا سيدي هو العقل

البشري، أعطانا الله عقلاً لنفكر، ولنبني كل حساباتنا على العقل.. لا أن تجرّنا العاطفة إلى المهالك.. المعجزة كامنة هنا (ويضع أسعد سبابته على صدغه)، هنا المعجزة، لو يدركها أبو إبراهيم.

لقد أدركها غيرنا وفعل بها المعجزات.. تلك الاختراعات الهائلة التي أفادت الإنسانية جمعاء.. كما أنه هو العقل المعجزة نفسه اخترع وسائل الدمار. الأشد فتكاً.. وما زال يبحث عن الأكثر قتلاً وتدميراً. هل أقول إن الله قد تخلّى عن كل الكرة الأرضية.. عن البشرية جمعاء؟ هذا هو المنطق الذي أحسّ به.. أشعر به.. أنام وأصحو عليه.

يصمت أسعد، يمسح العرق المتفصّد من جبينه بباطن راحته. أشعر أنه يرتجف. يشعل سيكارة، ويمجّها كعادته عندما يدهمه الحزن. ثم يردد: لقد تخلى الله عن البشرية جمعاء. كل ما في العالم الآن غلط.. غلط.. كل ما في العالم الآن ينبىء بأن الدمار الشامل قادم.. الدمار الشامل قادم.

* * *

الدمار الشامل الذي يحسّ به أسعد هل بدأ من بيروت؟ إنه يكبر ويتّسع في المدينة، في البلد كله، في النفوس والقلوب أيضاً، فها هي زوجتي تردّد، وقد عادت للتوّ من تعزية أمّ علي بطفلها القتيل: الحزن يعمّ يا أبو بسام، بكيت أكثر مما بكت، بل كانت كل جلستنا بكاء وحزناً. والله لم نذكر الطفل إلا قليلاً، وأحاديثنا كانت فلان قُتل، فلان تهدّم بيته على رأسه.. إن كل شيء يموت في البلد، ومن بقي على قيد الحياة اليوم لن يبقى غداً. القنابل تطارد الناس. الرصاص يحصدهم هنا وهناك. كان أبو علي يشتم كل شيء كأن مساً من الجنون قد أدركه، يرفع رأسه إلى السماء ويصرخ: ماذا فعلت بنا؟ هل أنت قاسٍ إلى هذا الحد؟ ماذا فعل هذا الطفل البريء حتى يقتل على يد أخيه.. ماذا فعلنا يا إلهي؟

كان صراخه يصل إلينا من الغرفة الأخرى، ويحاول الرجال تهدئته.. إلا أن صراخه يعود ويعلو من جديد. ونحاول نحن النساء أيضاً أن نخفّف عن الأم المسكينة التي كانت تردد: غفلت عنهما رمشة عين لا أكثر.. والله كنت إلى جانبهما.. وما هي إلا لحظة أقل من دقّة القلب ثم سمعت شيئاً يسقط. كان الصغير يضحك.. لم يدرك ماذا فعل؟ في الحقيقة أنا التي قتلت ولدي.. إنهما صغيران.. الحق عليّ.. لو كنت منتبهة لهما لما حدث ما حدث. أنا قتلت ولدي يا ناس.. أنا قتلت ولدي.

ولم أستطع البقاء أكثر ـ تقول زوجتي ـ خرجت من البيت وصوت أبو علي يلاحقني كالرعد: أنت أيها القاسي.. أنت أيها القاتل.. أنت يا قدر يا عديم الرحمة!

وتصمت أمينة لحظة، ثم ترمقني وتقول: اسمع يا زوجي العزيز.. أيها المتفرج الهادىء البال الساكن كالبحيرة، اسمع ما أقوله لك.. هذه الحرب إنها تخرّب النفوس، في أعماق الناس وقلوبهم أكثر مما تخرب البنايات والشوارع..

إنها تقتل الإنسان في روحه قبل أن تقتله في جسده.. هنا يكمن الخطر أيها الرجل الزاوي في الزاوية. الخائف.. انتبه إلى ما أقول لك انتبه.. سترى في الغد عجباً.. سترى ما لم يتحدث عنه الأوائل..

ما هذه الصحوة في ذهن أمينة؟ كأن شيئاً أيقظها على ما أنا فيه وما فيه كل هؤلاء الناس، أمينة التي عرفها الناس وقراء الصحف شاعرة تختزل الكلمات لا يستهويها إلا الفدائي.. ولا تكتب شعرها إلا من أجل يافا والقدس وأريحا.

وأقترب منها، أحاول أن أمسح من ذاكرتها المشهد الأخير. غير أن دموعها تعبر عن أحزانها فتنصرف إلى ولديها الأثيرين، إلى عالمها المغلق الذي نادراً ما فتحت لي نحوه نافذة مضيئة.

* * *

نعمة النسيان

إنها نعمة حقاً، يخيل لي أن السرّ يكمن هنا أيضاً. فأبو علي خفّت أحزانه، وإذا نظر في وجوهنا أدرك أننا ما زلنا نشاركه هذه الأحزان، فيبتسم ابتسامة مريرة، ويرفع رأسه إلى السماء ثم يردد: إرادة الله.. إرادة الله. زوجته التي اختفت زمناً، عادت وصارت تزور وتزار، وزارتنا مراراً، وشربت القهوة في شرفة بيتنا، وكانت تتخلل هذه اللقاءات بعض كلمات العزاء فيكون ردها شبيهاً برد زوجها: الله أراد. الله أخذ.. الله يعطي.. فها أنا حامل من جديد، وإذا جاءني ذكر فسوف أسميه علياً. وإن جاءت بنت سأسميها فاطمة.

إلا أننا، والدكتور خاصة، صرنا نلمح في أبو علي خللاً ما.. إذ يكتئب فجأة، فيترك محله ويهيم على وجهه. حتى وإن كان عنده زبائن يطلبون شيئاً من اللحم، فينتظرونه دون إبداء أي إزعاج، أما إذا كان الزبون من خارج الحي فإنه ينكفىء إلى الجمعية التعاونية ويأخذ حاجته من هناك. وإذا عاد القصف مجدداً ترك أبو علي كل شيء ودخل المبنى مسرعاً إلى الملجأ. فيقوم جاره أبو كامل بإغلاق المحل نيابة عنه، ولا يعود أبو علي إلا إذا هدأ القصف تماماً, ومع الأيام صار أكثر خوفاً، ولمجرد أن يسمع انفجارات على خطوط التماس حيث لا خطر علينا ألبتة في الحي، يترك محله وينزل إلى الملجأ. صار له في الملجأ ركن خاص، فيه فرشته ولحافه ووسادته، وحتى علبة سكائره.

لكن الأمور تطورت بعد ذلك. إذ مرت سيارة مسرعة وأطلق من فيها رشقات من مدفع رشاش على رجل كان يمرّ بالقرب من دكان أبو علي، فانقلب عبر واجهة المحل ثم ارتمى على الزجاج الذي حطمه بجسده وراح ينتفض أمام عينيه.. بينما ولّت السيارة الجانية الأدبار، وأسرع شبان من مركز الصليب الأحمر الدولي

المواجه لدكان أبو علي، حاولوا إسعاف الرجل، لكن يبدو أنه مات. فسحبوا جثته إلى طرف الرصيف وألقوا عليه غطاء بانتظار سيارة الإسعاف لنقله.. ولكن ما الذي حدث لأبو علي لحظة ذاك.. تقول أم خالد، وكانت داخل المحل تنتظر إعداد كمية اللحم التي طلبتها: «خفت كثيراً واحتميت بأبو علي، لكنه كان يشدّني إلى الأمام ليحتمي خلفي. كانت مفاجأة مذهلة لكلينا. ولكن بدا لي وأنا المرأة، أنني أقل خوفاً منه، كان يرتجف بشدة، واصفرّ وجهه اصفراراً داكناً حتى خشيت عليه. كانت الحادثة سريعة كومضة برق، ولكن أبو علي شُده إذ رأى نصف الرجل القتيل قد تدلّى داخل المحل، بينما نصفه الآخر كان يتأرجح خارجه. كان المشهد قاسياً لن أنساه في حياتي.. ولن ينساه أبو علي أبداً».

وصرنا ننتبه، تباعاً، وعلى مرور الأيام، أن أبو علي غير أبو علي الذي كنا نعرفه، حتى إن قريباً له مهنته قصّاب صار يساعده في العمل بعض ساعات النهار، كل شيء أصبح مختلفاً. نلقي التحية عليه، غالباً لا يجيب، يحدق في الوجوه ثم ينكفىء. وإذا سمع انفجارات ولو بعيدة جداً، أسرع إلى الملجأ واتخذ في زاويته مكاناً ثابتاً، يجلس مقرفصاً ثم يشعل السيكارة تلو السيكارة. يصغي بحذر، ولا يفارق مكانه إلا عندما تنحسر الانفجارات تماماً. تقول زوجته لزوارها إنه حتى أثناء النوم لا ينام، كثيراً ما تصحو فلا تجده إلى جانبها، ثم تدرك أنه هبط إلى الملجأ، خصوصاً عندما يكون القصف على خطوط التماسّ مستمراً، وهي انفجارات مستمرة على نحو متقطع رغم كل قرارات وقف إطلاق النار، ولكنها بعيدة نسبياً عن الحي، ولا تزعجنا كثيراً. وما لم يقترب القصف من أحياء رأس بيروت فإننا كنّا ننام في بيوتنا دون قلق، ولا نكاد نسمعه إلا إذا أصغينا جيداً لمصدر الصوت. وفي الأيام الهادئة نسبياً نراه يمشي حذراً، يتلفت يمنة ويسرة، كأنه يتوقع أن يهاجمه عدوّ ما، أو تنفجر سيارة مفخّخة فجأة، أو تسقط قذيفة بشكل مباغت، لأن كل هذا كان متوقعاً، وكان الناس إذا اضطروا أن يذهبوا إلى أعمالهم أو يشتروا شيئاً من المواد الغذائية يخرجون وأيديهم على قلوبهم. والدكتور أسعد اعتبر ذلك إنذاراً لنا. إن حالة أبو علي ستداهمنا جميعاً ذات يوم، الخوف وباء سينتشر تباعاً. أبو علي واجه الموت في محله مراراً، في ولده، في اغتيال الرجل أمام دكانه، في الناس الآخرين. إنها الحرب. كل المصائب تتراكم فيها، وحالة أبو علي نبوءة لنا جميعاً. ستصبح المدينة كلها بحاجة إلى عناية نفسية، إلى مستشفى أمراض عقلية. إن كل شيء يتهالك ويسقط. والصورة الحادة تتوضّح أكثر فأكثر ويوماً بعد يوم.

* * *

الفصل العاشر: اليوم الأسود

كان جالساً إلى جانبي يرتجف. وكلما نظرت نحوه رأيت عرقاً غزيراً يتفصد من جبينه ويملأ وجهه وحول عينيه وعنقه. خلته لوهلة يبكي. كنت أعرف أنه خائف. فأخبار المذبحة انتشرت بسرعة. مئات الناس قتلوا هناك على الهوية، وهو خائف أن يلقى المصير نفسه، إذ إنهم في الغربية، أيضاً، بدأوا الذبح على الهوية. كان يستعجلني ويطلب مني أن أسرع. وكيف أسرع يا جوزيف؟ قلت له. فشارع المزرعة مزدحم بالسيارات. وحواجز المسلحين توقف الناس وتسألهم عن تذاكر الهوية. بالنسبة لي، كنت مطمئناً أنهم لن يقربوه طالما هو معي، وعلى زجاج سيارتي الأمامي لوحة «الصحافة» التي كانت توفّر علينا كثيراً من المشاكل والمتاعب. كانت اللوحة المختومة بخاتم نقابة الصحافة تفتح لنا الطرق، وكانت الحواجز تسمح لنا بالمرور دون أي سؤال. كذلك كان جوزيف يدرك معنى هذه اللوحة السحرية، وعندما صعد إلى جانبي قال مرتبكاً: هيا.. لنخرج من هنا أرجوك. فالمجلة التي نعمل فيها معاً مكاتبها في القسم الشرقي من المدينة. فقلت له: أنت تحميني هنا.. وأنا أحميك هناك. قال: حسناً.. حسناً.. ولكن أسرع.. أرجوك.

بيروت في ذلك الوقت كانت مسمومة الوجه، الناس تتراكض هنا وهناك. الإذاعات المختلفة تروي وقائع المذبحة، أو ما أسموها فيما بعد «السبت الأسود».

اجتزنا أطراف رأس النبع بسلام، نحو المزرعة، فتنفست الصعداء، فيما بدا هو أكثر ارتباكاً عندما شاهد عشرات المسلّحين يوقفون السيارات ويسألون عن بطاقات الهوية. وكان بعض المسلّحين ينزلون ركاباً من بعض السيارات ويقودونهم إلى جهة مجهولة.

قلت له: جوزيف لا تخف.. ثم أشرت بسبابتي إلى لوحة الصحافة المثبتة على زجاج المقدمة، في الوسط تماماً، حتى يراها الجميع بوضوح. لكنه قال لي بصوت خافت: الله يحمينا يا أستاذ.. يا ليتني لم أترك المكتب.

بيت جوزيف كان في شارع الحمراء، متزوّج من رسامة ما زالت في بداية فنّها، وله منها بنت جميلة اسمها ليندا. كنت كلما زرته في بيته جلبت لها معي عدة أنواع من الشوكولا. كان صديقي، يبعد بيته عن بيتي مسيرة خمس دقائق، نعمل معاً في المجلة منذ أكثر من سنتين، وكنت أحرّر في قسمها الثقافي ويحرر هو في قسمها الاقتصادي. غالباً، عندما نلتقي معاً، أصحبه بسيارتي إلى منزله. كان مصاباً بشلل في قدمه اليسرى منذ كان طفلاً، وهو يستعين بعكاز خشبيّ فيجرّ قدمه جراً، لكنه كان من ألمع كتّاب المجلة، أنا وهو وزميل ثالث فقط نسكن في غرب المدينة، بينما بقية المحررين يسكنون في شرق المدينة.

قبل الحرب لم نكن نشعر بأيّ حرج في التنقل بين شارع الحمراء والأشرفية، خصوصاً بعد أن تم إنجاز جسر فؤاد شهاب الذي ربط الأشرفية بشارع الحمراء مباشرة، فصرنا نقطع المسافة بين المجلة

والبيت بعشر دقائق، وفي فترة الازدحام بثلث ساعة على أبعد تقدير. في الحرب أصبح جسر فؤاد شهاب جزءاً من خطوط التماسّ، يقوم على مدخله الغربي بناء ضخم اطلق عليه اسم برج المرّ نسبة إلى صاحبه، وهو عبارة عن بناية ترتفع خمسة وعشرين طابقاً، بينما يقوم على الطرف الآخر قريباً من الجسر بناء آخر أشد ارتفاعاً أطلق عليه اسم: برج رزق. وقد انتصبت المدافع وراجمات الصواريخ في كلا البنائين المتقابلين كأنهما وحشان لدودان ينتظر كل منهما مناسبة لإلقاء كل قذائفه ورصاصه عليه. وفي الحقيقة فان قذائف المدفعية وطلقات الرصاص قد نخرت البناءين... لكنهما ظلا شامخين صامدين تستخدمهما الأطراف المتقاتلة كدرع من الإسمنت المسلح لحماية الأحياء المحيطة بهما. فبرج المر كان يحمي شارع الحمراء مباشرة، كذلك متفرعات رأس بيروت. أما برج رزق فكان يحمي الأشرفية ومحيط مستشفى أوتيل ديو والأشرفية التحتا والجعيتاوي والمناطق المحيطة.

بإغلاق جسر فؤاد شهاب أمام حركة المرور صرنا نضطر عندما نخرج من مكاتب المجلة إلى عبور منطقة المتحف إلى رأس النبع ثم المزرعة، أو الشوارع المتفرعة عن المزرعة مثل مار الياس أو كورنيش التلفزيون، حتى للوصول إلى رأس بيروت.

ذلك اليوم الأسود، دخل علينا مدير الإدارة وصاح بنا: ليغادر المحرّرون المكاتب فوراً.. عودوا إلى بيوتكم.. الحواجز المسلّحة ما بين بيت مري وبرمانا نزولاً إلى البلد تذبح الناس على الهوية.

دبّ الذعر في المكاتب، وأسرع أكثر من محرّر إلى سيارته، فيما صاح بي جوزيف: خذني معك، فرحبت به ونزلنا إلى الساحة. صعد إلى جانبي وانطلقنا.

لم تكن حواجز مسلحي القسم الشرقي من المدينة قد وصلت إلى محيط المجلة، وهذا وفّر علينا وقتاً، إذ انسحبنا من الأشرفية على عجل صوب المناطق المسلمة.

وما إن وصلنا حيّ المزرعة حتى بدأت المدافع المتقابلة تتراشق بشدّة، وحدث هرج ومرج. اصطدمت السيارات بعضها ببعض، لكن الناس كانت تتجاوز ذلك في محاولة كل منهم الإسراع إلى بيته. واختلطت أصوات أبواق السيارات المتزاحمة على النجاة بأصوات المدافع والرشاشات تهدر فوق رؤوسنا كالرعد. وكنت سأقترح على جوزيف أن يترك السيارة، فالحواجز المسلحة لم تكن تعترض المشاة، لكنه كان خائفاً وفزعاً، كما أن قدمه المشلولة لا تساعده على الحركة بسرعة. كنا قد تجاوزنا مستشفى البربير. كانت الناس تهرب بفوضى لا مثيل لها، فيما كانت أعداد من المسلّحين تتجه نحو خطوط التماسّ بكامل أسلحتها والمدافع المحمولة على سيارات الجيب، كما تكاثرت حواجز المسلحين التي كانت تفتش في تذاكر الهوية عن انتماءات الناس الدينية، قال جوزيف: الله يساعدنا. وراح يرسم الصليب على صدره.. فقلت له: كفّ عن هذه الحركة حتى لا يرانا أحد يا جوزيف.. وإذا سألك أيّ شخص من المسلحين عن تذكرة هويتك أبرز له بطاقة الصحافة.. فقال لي: واسمي يا استاذ.. اسمي يفضحني. فتذكرت أن اسمه جوزيف.. إنه يكشف ببساطة ودون تردّد.. فعلاً بدأت أخاف عليه.. إلا أن ما كان يطمئنني لوحة الصحافة التي تتصدّر السيارة، وخصوصاً أننا مررنا على عدة حواجز، وأشار رجالها بأيديهم أن نعبر بسرعة دون توقّف.

اشتدّ زحام السيارات قريباً من مفرق اليونسكو، ومفرق شارع فردان يميناً، فيما اشتد أيضاً القصف. وراحت رائحة الغبار والبارود تعبق بالجو. كانت سيارات الإسعاف تحاول التحرك دون جدوى. وازداد الصراخ والضجيج. وخشيت على جوزيف أن يموت رعباً. كنت ألمحه إلى جانبي وقد اشتدّ اصفرار وجهه، بينما لم يستطع في محاولات عديدة أن يشعل سيكارته. وتسرّب خوفه إليّ، وندمت لأنني اصطحبته معي.

كنا نتقدم ببطء شديد، وانفجرت قذيفة بالقرب منا، وعلا الغبار والصراخ معاً، وترك معظم الناس سياراتهم وراحوا يركضون في كل جانب. فكرت أن أفعل مثلهم. لكن جوزيف إلى جانبي.. كيف أتركه وأهرب؟ لعله هو أيضاً شعر بإحراجي. قال لي: اتركني يا أخي.. اتركني يا أستاذ.. أرجوك وانج بنفسك.. فضاحكته قائلاً: وهل تظنني خائفاً إلى هذا الحد؟ فقال: لا مكان للشجاعة هنا.. القذائف تنهمر على الجميع.. أنت لا تواجه وحشاً.. أنت تواجه قذائف مدفعية تسقط عشوائياً فوق رؤوس الناس. فقلت له: طالما أن السيارات التي أمامي تتحرك فأنا أتحرك فما زال خط السيارات الذي أمامنا يسير.. حسناً جوزيف.. حسناً.. إذا توقف السير.. نترك السيارة معاً.. فراح يلحّ: اذهب يا أخي.. اذهب.. على الاقل ليبقَ واحد منا على قيد الحياة.. هل تريد أن نموت معاً؟. أنت عندك أسرة وأنا عندي أسرة.. أرجوك انج.. إذا لم يكن من أجلك فمن أجلي. أنا لن أستطيع أن أخطو خطوة واحدة.

ظهر أمامنا الآن حاجز مسلح، لفت نظرنا أن رجاله كانوا ملثّمين بحطّات مبرقعة على غير عادة بقيّة الحواجز. قلت في نفسي: يا ستّار.. هؤلاء لا ينتمون إلى تنظيم محدّد. إنهم الأكثر خطورة بسبب إخفاء وجوههم.. مثل هؤلاء يبحثون عن الثأر. في الحقيقة توجّست خيفة، وتطلّعت نحو رفيقي. لقد انهار تماماً حتى إنه بال على مقعده، وساح بوله إلى تحت قدميه، فصحت به: اثبت يا جوزيف.. اثبت أرجوك.. إنك تربكني.

لم يردّ عليّ، ازداد اصفرار وجهه، فصرت أرجو الله أن يساعدنا.

ومع أن القصف استمر على أشده فقد ظل الرجال الملثمون في مكانهم يسألون ركاب السيارات عن بطاقات هوياتهم. لكن أملي ظل قوياً ببطاقة الصحافة أن تكون وسيلتنا للعبور دون أي سؤال.

وأخيراً اقتربنا من الحاجز، وانتظرت إشارة من أحد رجاله تأمرنا

بالمتابعة، لكن أحدهم أشار لنا بأن نوقف السيارة إلى جانب الرصيف، فبدأ قلبي يدقّ بعنف. توقّفنا، فاقترب رجل مسلّح من جهتي حيث أقود السيارة، فاطمأننت قليلاً، فأنا ابن المنطقة واسمي وحده كاف لينقذني وينقذ زميلي.

قال الرجل بلهجة الآمر:

ـ تذكرتك.

قلت في نفسي سألهيه عن زميلي في التباسط بالحديث معه، أجبته:

ـ نحن صحفيان يا اخ.

فصاح بي ثانية:

ـ قلت لك تذكرتك.

اقتربت منه عبر النافذة:

ـ ولكن.. لماذا أنت ملثّم يا أخ.. أريد أن أعرف من أنت؟

ـ هذا ليس شغلك.. أبرز تذكرتك.

فأشرت له نحو البطاقة الملصقة على زجاج النافذة، فكرّر ثانية، وبلهجة قاسية:

ـ ألم تسمعني؟. أريد تذكرتك.

فقلت له: أنا لست لبنانياً يا أخي.

فشدّد:

أبرز تذكرتك حتى أرى.

أخرجت بطاقة هويتي فقرأها على عجل وأعادها لي، توقّعت أن يسمح لنا بالمسير. لم يفعل. استدار نحو الطرف الآخر وطلب من جوزيف تذكرته، فبادرته قائلاً: يا أخي.. إنه مريض.. وعليّ أن أذهب إلى المستشفى.. إنها أزمة قلبية.. فاسمح لنا أن نمضي.

لم يصغ الملثّم إليّ، بل طرق زجاج النافذة المفتوح إلى نصفه وصاح بجوزيف:

ـ تذكرتك أنت.

نظر جوزيف نحوي مستنجداً، فكررت قولي:

يا أخ.. بالله عليك.. دعنا نمشي.. إن الرجل مريض، وعليّ نقله إلى المستشفى.

قال الملثّم موجهاً كلامه إلى جوزيف:

ـ قلت أعطني تذكرتك.. ثم أسمح لكما بالمسير.

وهنا لمحت جوزيف كأنّ الخوف قد غادره فجأة، مدّ يده إلى جيبه وأخرج بطاقة هويته. ما إن لمحها الملثّم حتى صاح به:

ـ انزل يا كلب.

غادرت مكاني من وراء مقود السيارة على عجل، وأسرعت نحو الرجل وقلت له متوسلاً:

ـ الرجل مريض يا أخ.. وهو إنسان وطني. ومن سكان رأس بيروت.. إنه بحمايتك وحمايتي.

دفعني الرجل بعيداً عنه ثم صاح بي:

ـ بلا أكل... لا تتدخل أنت.. وإلا...

قلت له بلهجة متوسلة أكثر:

ـ أرجوك.. كرمال عيوني.. بحق القرآن أن تتركه.

فصاح بي:

ـ أنت صحافي.. صحافي.. أليس كذلك؟

ـ نعم.. نعم..

ـ ألا تعرف ماذا جرى اليوم هناك؟

وأشار نحو الشرق.

قلت:

ـ نعم.. نعم أعرف.. إنها همجية ووحشية.

ـ إنهم قتلة.. مجرمون..

ـ لكن هذا الرجل يا أخ لا علاقة له بهم.. لا دخل له..

ـ وهل الذين قتلوهم لهم علاقة؟ لقد قتلوا أبي وأخي.. هل تفهم؟

واحترت ماذا أجيب الرجل.. ثم ترددت قبل أن أقول:

ـ إذا كانوا هم مجرمين.. هل تريد أن تكون أنت مجرماً؟

صفعني فجأة على وجهي صفعة شرسة كادت توقعني أرضاً لو لم أتمسك بالسيارة. ومع ذلك تحاملت على نفسي، ورحت أحاول التودّد إليه قائلاً:

ـ يا أخي.. والله الحق معك.. وهذا الرجل لم يلحق أذى بنملة طوال حياته.. انظر إليه.. إن نظرة واحدة تكفي لتعرف أنه بريء وأنه إنسان مثلي ومثلك.

قاطعني الرجل بحركة سريعة فتح خلالها الباب وجرّ جوزيف منه، فوقع على الأرض، حاولت مساعدته، غير أن الرجل الملثّم منعني، ثم راح يصرخ بجوزيف: قف يا ابن الكلب.. قف..

لم يستطيع جوزيف الوقوف دون عصاه، فاقتربت لأساعده. وهنا صرخ الرجل الملثم على رفيق له هو الآخر كان يشاهد ما يحدث: تعال يا أحمد تعال.. ثم إنهما معاً أوقفا جوزيف. كان مستسلماً لهما كحمامة، وكان بين الحين والآخر يرمقني بنظرة مرّة. مدّ يده إلى السيارة وسحب عصاه، واستقام وهو يستند إليها شادّاً جسده إلى أعلى، ثم التفت نحو الرجل الملثّم وقال له بهدوء:

ـ ها أنا بين يديك يا أخي.. وقبل أن تفعل شيئاً أريد أن أقول لك إنني ضد كل الذين يقتلون الناس، إنني ضد أن يموت إنسان لا ذنب له ولم يرتكب جريمة.. وما سمعنا اليوم شيء مخزٍ ووحشيّ ومؤلم.. إنني أعلن ذلك أمامك، ولو كنت قاضياً لحكمت على أولئك الذين ذبحوا الناس على الهويّة بالموت، فإذا كان عليّ أن أدفع حياتي ثمناً لحياة أبيك وأخيك.. فها هو عنقي أسلّمه لك.

وفوجئت باستعادة جوزيف رباطة جأشه وهو يخاطب الرجل. كان متماسكاً، زال عنه رعبه، واستعاد صفاء وجهه. كان ينظر في عيني الملثّم بصفاء روحي عجيب، لعلّني، وحدي، قرأت في هذه اللحظة ما يجول في ذهنه. كان رتل السيارات إلى جانبنا قد توقّف تماماً، فتلفتّ عسى ألمح أبو محمد أو أبو الطيب، أو أي عسكري،

أو مسلّح آخر لعله ينقذنا. لكنني انتبهت أن معظم السيارات قد فرغت من أصحابها هرباً من القذائف التي ما زالت تصمّ الآذان، وفي هذه اللحظة تمنّيت من كل قلبي أن تسقط علينا قذيفة تقتلنا جميعاً، تمنيت ذلك حقاً، لكنني حتى آخر لحظة كنت أتصوّر أن الرجل الملثّم سيعفو.

وبغمضة عين، وبشكل لم أتوقعه أبداً، سحب الرجل الملثّم جوزيف من شعره الكثيف ونخّه على صندوق السيارة وأطلق رصاصة واحدة على مؤخرة رأسه، فتلاشى جوزيف كالحلم، وتساقط ببطء شديد نحو الأرض، بينما كان الدم يتفجر من رأسه.

لم أستطع أن أصرخ، بل ظللت لوهلة لا أعرف ماذا أفعل. تركني الرجل وانضمّ إلى رفاقه الآخرين ثم انسحبوا بعيداً، ولم تغب عن بالي تلك النظرة القاسية التي رمقوني بها آنذاك، كانت فيها نظرات كلّ شرور العالم وأحقاده.

كان جوزيف منحنياً على نفسه. بينما انفلتت عصاه بعيداً، تمنّيت أن يساعدني أحد، وغاب عني كل شيء.. أحسست أن صمتاً رهيباً أحاط بي فجأة. صرت أرى الناس ظلالاً تمرق بسرعة من هنا وهناك.. لم أعد أسمع حتى القذائف.. لم انتبه إلى دموعي تسيل وتلامس شفتي بملوحتها. كان الغبار والبارود يملآن من حولي الفضاءات. أحسست أنني وحيد وضائع في صحراء أصارع العاصفة. أردت أن أشتم الرجال الملثّمين الذين كانوا مزهوّين بانتصارهم الصاعق على جوزيف.. وتذكرت كل ما كان الراديو يقوله ونحن نزحف بعيداً. ورحت أتصوّر الملثّمين الآخرين في القسم الشرقي من المدينة عندما قتلوا والد الرجل وأخاه وكيف عاملوهما. امتزجت الصورة في ذهني ملأى بالدماء والألم والعذاب. جوزيف، والآخرون جميعهم الذين فرشوا بدمائهم أرض يوم السبت، تجسدوا أمامي وهم يتساقطون تحت طلقات المسدس الذي ثقب رؤوسهم، فرحت أبكي بصوت عال كطفل فقد الرجاء وفقد الأهل وضاع في غابة لم يدخلها إنسان.

لا أدري كم مرّ من وقت وأنا في هذه الحالة. عندما استعدت وعيي انتبهت إلى أن الصورة الداكنة ما زالت تتحرك: القذائف والناس والغبار والحجارة والهرب والرعب، كأن القيامة قامت وانهار كل شيء.

الرجال الملثّمون اختفوا، ربما ليبحثوا عن صيد جديد، كانت في عيونهم تلك النظرات التي لن ترتوي من الدماء، ماذا أفعل؟ جوزيف لا حراك به. ما زال على قعدته إياها، منحنياً، ومنطوياً على بعضه، لم يسقط إلى الأرض تماماً ولم تتمدد جثته مثل بقية القتلى. والناس، الناس، كلهم يعبرون من جانبي دون توقف، دون أن ينظروا إلى هذا الإنسان الحبيب الذي كان قبل لحظات، أو ربما قبل سنوات، يكلمني بصوته المتهدج الخائف.. كان حياة حقيقية، ثم تحول فجأة إلى صمت.. صمت قاهر ومرعب.

تمنيت أن يبادرني إنسان ما ليساعدني.. دون جدوى.. يا إلهي.. ماذا أفعل بالجثة.. خيّل لي، بينما الناس يتراكضون على غير هدى، أنني سأفعل مثلهم، أترك السيارة وأترك جوزيف وأركض.. وتخيلت في هذه اللحظة زوجة جوزيف وابنته ليندا. ماذا ستقول إذا عرفت؟ يا إلهي، بل بأيّ وجه سأقابلها؟ قتلوه أمام عيني.. وستسألني كيف سمحت لهم أن يفعلوا؟ يا ليتني لم أصطحبه.. يا ليتني أجبرته على البقاء هناك.. إذن لما لقي هذا المصير.

القذائف. الناس. الغبار. الهرب. أبواق السيارات. الجنون. كان الجنون هو السائد هذه اللحظات. كنت أفتح ذراعي كأنني أناجي الله.. أو أتمنى عليه نجدتي.. وتذكرت ابنتي وابني وزوجتي.. لا شك أنهم عرفوا ما جرى.. وأنهم يتلفنون إلى المجلة.. وإلى أصدقائي يسألون عني.. أعرف مدى قلقهم.. كانوا دائماً يقلقون كلما اضطررت للخروج إلى العمل.. وهنا اتخذت قراري، حملت جثة جوزيف من تحت إبطه وأدخلته إلى المقعد الخلفي بصعوبة. تلوثت بدمائه، تخضّبت كفّاي بالدماء. لم أكن مهتماً، أريد فقط أن أرفعه. كان المسكين ثقيلاً، كأنه حمل كل هموم العالم. وكان ساكناً سكون الخوف البعيد، مضرجاً بالدم والغبار والأسى، وانتبهت إلى ابتسامته المريرة التي لن أنساها ما حييت، ابتسامة فيها إدانة العالم كله. البشرية كلها.

مددته على المقعد وتركته. ظللت حائراً ماذا أفعل؟ إلى أين اذهب بالجثة؟ كانت زحمة السيارات قد خفّت وبعضها تركها أصحابها في منتصف الطريق. جلست وراء مقود سيارتي وسرت متعرجاً بين السيارات المتوقفة وبين الحجارة والرماد والحرائق. سرت مسافات. لم أقصد بيتي. كنت أفكر بوسيلة ما أرمي فيها عني هذا العبء. لن أذهب بجوزيف إلى بيته. إلى زوجته الفنانة.. إلى ليندا التي قد تعتقد أنني جلبت لها الشوكولا.. يا إلهي.. ماذا ستفعل إذا رأتني أجلب لها أباً ميتاً؟ ماذا ستقول؟ ستكرهني أبداً. لا أريدها أن تكرهني. لا أريد زوجته أن تتألم كلما رأتني عابراً الطريق أو جالساً في مقهى قريب.

راحت الأفكار تتضارب برأسي. لم أَشْتَهِ الموت كما اشتهيته ذلك اليوم. يا إلهي.. من ينقذني من هذا الموقف الصعب؟ أين أذهب بك يا جوزيف؟ يا صديقي.. يا أخي.. ماذا أفعل؟ لكن جوزيف ظل صامتاً وممدداً خلفي بهدوء وسكون.

سرت طويلاً في الشوارع المغبرة التي أصبحت شبه فارغة الآن لا يعكر صمتها إلا سيارات المسلّحين وهي تعبرها. القصف يشتدّ، وتختلط أصوات القنابل بأصوات الرصاص والصواريخ، وما زلت أسير على غير هدى.. لا أحد يعرف أنني أنقل جثة. وأنني لا أعرف ماذا أفعل بها.

عبرت شوارع وأزقة وانتبهت في آخر لحظة أنني أعبر كورنيش المنارة إلى منطقة المرفأ، أي إلى خطوط التماسّ، كأنني أريد أن أعود

بجـوزيف إلى القسم الشرقي من المـدينـة، ووقفت، واستـدرت بالسيارة لأعود. . غير أن سيارة مسلّحين اعترضتني ونزل بعض ركابها نحوى شاهري السلاح: قف. . ووقفت. صرخ أحدهم: انزل من السيارة. . نزلت. لمحوني أبكي. . كنـت متهدّمـاً حقاً. لا أقـوى على الوقوف. أشفق عليّ أحدهم وسألني إن كنت بحاجة إلى شيء. فأشرت إلى المقعد الخلفي. تقدم فرأى جثة جوزيف. سألني:

ـ من هدا القتيل؟

احترت ماذا أقول له. . فكرّر السؤال:

من هذا القتيل؟

قلت له:

إنه زميلي في العمل. . قتلوه هناك. وأشرت إلى مكان ما.

ـ من الذي قتله؟

قلت:

ـ رجل ملثّم

ـ آ. . آ. . عرفت. . عرفت. . صاحبك مسيحي.

ـ نعم. . إنه، يا للأسف، كان مسيحياً.

قال:

ـ وأنت؟

قلت له:

ـ أنا. . أنا مسيحي أيضاً يا سيدي. . لو تريحني بطلقة واحدة.

قال:

ـ نحن لا نقتل من لا يقاتلنا. . ولكن، كيف قتلوه وتركوك؟

ظللت صامتاً، فقال لي:

ـ هل تريد مساعدة؟

فتجرأت وقلت له:

ـ أين أذهب به؟

قال:

ـ خـذه إلى بـراد المستشفى. . ثم أخـبر أهله. . أسرتـه. . هـل تعرف أسرته؟

قلت:

ـ نعم. . لكن لا أجرؤ على أخذه إلى أهله. . لا أجرؤ أن أقـول لهم. . ساعدوني أرجوكم.

تبادل الرجال نظرات سريعة، ثم قال أحدهم:

ـ سنساعدك.

تقدموا من سيـارتي وسحبوا جثة جوزيف ورموها في سيـارتهم، ثم قال لي أحدهم:

ـ تذكرته معه.

ـ نعم.

ـ إذهـب أنت إلى بيتـك. . أسرع، وإلا لحـقـت بـه، نـحـن نتصرّف.

تحركوا في البـداية بـطيئاً، ثم أسرعـوا وغابـوا عني. أما أنـا فقد ظللت في مكـاني مسمراً في الأرض لا أتحـرك. . وندمت لأنني تـركت جـوزيف يـذهب معهم. ثم تـذكـرت زوجتي وولـدي فعـدت إلى سيارتي ورحت أقودها بسرعة جنونية محاولاً العثور على بيتي.

دار الآداب تقدم

وردة الندم

شعر

شوقي بزيع

قصائد خائفة

شعر

جودت فخر الدين